# المقتطف من تاريخ اليمن:
# حافز ومرشد للكتابة في تاريخ اليمن السعيد

تثير الكتابة في تاريخ اليمن، في ما تثير، مسألتين على قدر من الأهمية كبير. تتمثَّل المسألة الأولى في قدم هذا التاريخ وعراقته وغناه بالأحداث الجسام التي كان لها التأثير الفاعل في التاريخ العربي بخاصَّة، وفي التاريخ العالمي بعامة؛ هذا فضلاً عن أهمية اليمن التي تعدُّ «جوهرة الجزيرة العربية كلها، وأكثر البلاد العربية خصباً»؛ ما جعلها مرادفة لليُمْنِ والخير. أما المسألة الثانية، فتتمثَّل في قلَّة الكتابات التي تتناول هذا التاريخ، وفاقاً للمستوى الذي يتناسب مع أهم المناطق الحضارية القديمة في العالم، هذه المنطقة التي قاومت طوال القرون الطويلة الماضية، وحاربت العديد من صنوف الغزاة، من أجل نيل حرَّيتها واستقلالها.

إن ما سبق وقلناه يجعلنا نرى في صدور كتاب «المقتطف من تاريخ اليمن»[١] أمراً على غاية من الأهمية، من دون أن يفوتنا التساؤل: لِمَ «المقتطف»، ونحن بحاجة إلى سِفر مطوَّل في تاريخ غني ضارب في القدم، وقلَّ أن بُحث فيه وكتب عنه؟

لعلنا، في هذه المسألة، نختلف مع المؤلف الذي يقول: «ولما كانت بلاد اليمن من أقدم بلدان العالم وأعرقها مدنية، بحيث لا تكاد تضارعها بلاد

(١) المقتطف من تاريخ اليمن لمؤلفه القاضي عبدلله عبد الكريم الجرافي، بيروت: مؤسسة دار الكتاب الحديث، الطبعة الثانية، ١٩٨٤، ٣٢١ صفحة.

أخرى في طول تاريخها المفعم بالحوادث والمليء بالأخبار، لم يكن في الإمكان إلَّا أن يدوِّن مثل هذا التاريخ مجملاً، وفي شيء كثير من الإيجاز» (ص. ١٦).

نختلف مع المؤلِّف في ما يذهب إليه، في هذا الشأن، ونتَّفق مع المقدِّم للكتاب: إلياس عبود الذي يتساءل بحرقة: «... أمقتطف والمطلوب قطف شامل كامل...»، والذي يضيف: «إن تاريخ اليمن بحاجة إلى موسوعات، من حيث هو تاريخ سيل العرم العربي الذي اندفق، وانفلش في أربع رياح الأرض» (ص. ٨).

في صدد جلِّ ما أثرناه، يقول الناشر في تقديمه للكتاب: «إن المفكِّر والأديب المناضل الدكتور عبد العزيز المقالح هو صاحب الفضل الكبير في دفع هذا المقتطف من تاريخ اليمن إلى المطبعة؛ حيث رأى فيه بعضاً من تراث حضارتها المطمورة، عسى هذا الكتاب يرشد حضارة اليمن...» (ص. ٦).

أن يشكِّل هذا الكتاب حافزاً للباحثين والمنقِّبين ومرشداً لهم، كما أراد له الدكتور المقالح أن يكون، هو طموح مشروع لـ «مقتطف» ومقدَّر. والأمل في أن تكون أول الغيث قطرات مخصبات، تحثُّ المؤرِّخين على البحث والكتابة، كأنَّ مؤلِّفه يقول: «هذا ما أتاحته لي ظروف عسرتي أن أفعله، فتبصَّروا أنتم... خوضوا البحر الزاخر في الزمن المناسب، واخرجوا ما تجدون من لآلئ ثمينة».

نتوجَّه إلى تصفُّح سريع لصفحات أتاحت ظروف العسرة إنجازها، ونحن نأمل أن يكون المقتطف من تاريخ اليمن أساساً يحثُّ على القيام بإنجاز موسوعي علمي ينطلق من مفهوم للتاريخ محدَّد وواضح، ومن وعي لدور الماضي في غنى الحاضر وتطوُّره وتقدُّمه.

الحق أنَّنا لا نقلِّب الكثير من الصفحات حتى نجد بغيتنا؛ إذ إن المؤلف يطالعنا في كلمته الأولى بمفهوم لعلم التاريخ أو لفن التاريخ، كما يسمِّيه، مؤدَّاه «فن التاريخ الذي هو الوصل بين الماضي والحاضر وسجل أعمال الأصاغر والأكابر، ومعرض آثار الأمم في البوادي والحواضر، واللسان الناطق

بعلومها ومعارضها وطبائعها وأخلاقها وآدابها ومعتقداتها، والصورة الحقَّة لرقيِّها وانحطاطها...» (ص. ١٣).

وهو، عندما ينطلق من هذا المفهوم، يعي مهمة التاريخ في حياة الأمم وتطورها ورقيها، فيقول: «... ولذا كان لزاماً على كل أمة تحاول النهوض الالتفات أولاً إلى ماضيها ودراسة تاريخها ومعرفة ما فيه من الحوادث والكوارث وأسباب الصعود والهبوط، لأن حياة الأمم موصولة بماضيها، وحاضرها القريب وليد ماضيها البعيد، لذا قيل: إنَّ الأمَّة التي تهمل ماضيها ولا تعرفه مثل الرجل الذي يفقد ذاكرته».

فدراسة التاريخ إذاً، يضيف المؤلف: «من ضروريات البقاء، ومعرفة تاريخ الأمة نفسها من أكثر عوامل الارتقاء»، وبخاصة إن كانت مثل اليمن التي في تاريخها «من أعمال المجد والعظمة ما يثير الفتوَّة، ويبعث النشاط والقوة، ويدفع الأبناء إلى ترسّم آثار الآباء، كما هي حالة رجال اليمن السعيد، فإنهم كانوا قبل الإسلام في مقدمة الدول المتحضِّرة كما تشهد به آثار سبأ ومأرب، وفي الإسلام كانوا في طليعة الفاتحين...» (ص. ١٣).

انطلاقاً من هذا الفهم لـ «فن التاريخ» ودوره، يقدِّم المؤلِّف، في كتابه، موجزاً لتاريخ اليمن، منذ أقدم العصور إلى بداية حكم الإمام أحمد حميد الدين (١٣٧٠ هـ.)، جامعاً شتاته من أدقِّ المصادر، كما يؤكد هو نفسه، لكي يقدمه إلى إخوانه العرب في مختلف أقطارهم وأمصارهم.

هذا الموجز يبدأ ببيان مفصَّل عن البلاد اليمنية يشتمل على معلومات أولية عن أراضيها وحدودها ومختلف أقاليمها وأقسامها وأنهارها ووديانها وجبالها وأشهر مدنها وثغورها، وأهم آثارها القديمة الخالدة، وعلى شيء من اقتصادياتها وقبائلها وسكانها؛ هذا كله في الباب الأول. أما في الباب الثاني، فيتحدث عن تاريخ اليمن قبل الإسلام؛ وفي الباب الثالث يبحث في الفتح الإسلامي، وفي الباب الرابع يبحث في من تولى اليمن من الملوك والسلاطين،

ويبحث في الباب الخامس في الدولة الهاشمية، وفي البابين السادس والسابع يتحدث عن دولة الإمامين: يحيى وأحمد حميد الدين، منهياً كتابته التاريخية بقصيدة أنشأها الشيخ محمد البيجاني، وألقاها في مدينة تعز بين يدي الإمام أحمد مهنِّئاً، ومتشفِّعاً لجماعة من اليمنيين كانوا قد اشتركوا مع عبد الله الوزير في ثورته ضد الإمام يحيى حميد الدين.

الواقع أن هذا الكتاب يعدُّ، كما سبق وأشرنا، موجزاً يحفِّز الباحثين ويرشدهم، فعسى أن يجدَّ هؤلاء في البحث، وبخاصة أنَّهم ما عادوا مقيَّدين، الآن، كما كان هو مقيَّداً في ظل حكم ملكي له فهمه الخاص للكتابة التاريخية.

❐❐❐